النص 5: الأنتروبولوجيا والعلوم الاجتماعية

خلال مجهود الإنسان الطويل لفهم ذاته، المرحلة الأكثر حداثة هي الدراسة المنظمة للعلاقات بين الفرد والمجتمع والثقافة. هذه الدراسة تقع في ملتقى ثلاثة فروع علمية: علم النفس، وعلم الاجتماع، والأنتروبولوجيا، حيث أن كل واحد منها احتفظ بقطاع خاص من الظواهر، وطور تقنياته الخاصة، ويمكنه منذ اليوم تقديم نتائج صلبة. ولكن الأمر يصبح بديهيا أكثر أن بعض الظواهر لا يمكن لأي من تلك العلوم حلها وحده. إننا نستعمل عمدًا عبارة "بعض الظواهر" ذلك أن كل علم يغطي ميدانا واسعا جدا، والمشاكل التي يصادفها هي ذات طبيعة وأهمية مختلفتين جدًا. البعض منها لا يمكن أن يعالج بطريقة صحيحة تماما بدون تعاون علم مع الآخر. هكذا فإن عالم النفس التجريبي، عندما يشتغل على الحيوانات، يمكنه أن يتبع طريقه الخاص من غير أن يهتم باكتشاف علم الاجتماع أو الأنتروبولوجيا. فهذان العلمان لا يصبحان مهمين إلا عندما يحاول تطبيق اكتشافاتهما في فهم السلوك البشري. بالمثل عالم الاجتماع، عندما يصادف مشاكل ملموسة يجب أن تحل في إطار مجتمنا وثقافتنا، لا يكون بحاجة أبدًا لخدمات الأنتروبولوجيا. ولكنه في الوقت ذاته يبدأ في الارتكان إلى علم النفس، وكل شيء يشير إلى أنه سيفعل ذلك أكثر فأكثر في المستقبل. في الختام، في الميدان الواسع للدراسات الأنتروبولوجية، الأركيولوجيا أو الأنتروبولوجيا الفيزيقية يمكنهما أن تجيبا على عدد من الأسئلة خاصة بهما من غير استشارة علماء النفس ولا علماء الاجتماع. لكن الباحثين الذين يشتغلون على علم نفس الشخصية، وعلى البُنيَّة الاجتماعية والأنتروبولوجيا الثقافية، فهؤلاء يجدون أنفسهم مشدودين بعضا ببعض باهتمامات مشتركة.

رالف لينتون

Le fondement culturel de la personnalité,

Bordas, Paris,1977, p. 36.

أ-التعريف بالكاتب:

ولد رالف لينتون Ralph Linton الأنتروبولوجي الأمريكي عام 1893 في عائلة عريقة من كواكرز في فيلادلفيا حيث كان والده يملك شركة تجارية هامة. بعد دراسته في مدرسة كواكرز في فيلادلفيا حيث كان يملك والده شركة تجارية هامة. بعد دراسته في مدرسة كواكرز العالية، دخل ثانوية سوار ثمور حيث أظهر ميلا كبيرا نحو الأدب والتاريخ وعلوم الطبيعة. شارك لينتون كونه مولعا يعلم الآثار، في تنقيبات خلال

1912- 1915 في جنوب غرب الولايات المتحدة، وفي غواتيمالا ونيوجرسي، حيث أظهر موقفا من التراث الشرقي قرب هادونفيلد. حوالي عام 1920 بدأت فعليا مهمته العلمية. وصل إلى جزر الماركيز كعالم آثار وعاد منها إتنولوجيا. عام 1922 عمل في المتحف الميداني للتاريخ الطبيعي في شيكاغو- بعد بعثة مدغشقر (1925- 1927) دخل جامعة ويسكونسن حيث مارس تأثيرًا كبيرا على طلابه، ومن بينهم كلوكهوهن.

أصبح واحدًا من الوجوه المركزية للمذهب الأنتروبولوجي المدعو "ثقافة وشخصية" أي التيار الثقافوي. من أهم مؤلفاته: دراسة الإنسان" و "الخلفية الثقافية للشخصية" و "شجرة الحضارة". عام 1946 دعي لينتون إلى جامعة بال. وتوفي عام 1953.[1]

ب-فهم النص

1-تفكيك النص

-محاولة فهم الإنسان لذاته قديمة ولكن المرحلة الحديثة في هذا المجهود هي الدراسة المنظمة للعلاقات بين الفرد والمجتمع والثقافة. وهذه الدراسة يلتقي فيها ثلاثة فروع معرفية هي علم النفس وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا.

-كل علم من هذه العلوم له تقنياته وموضوعه ونتائجه ولكن مع ذلك توجد بعض الظواهر لا يمكن لأي علم من تلك العلوم أن يدرسها لوحده.

-ضرورة تعاون العلوم المذكورة فيما بينها لمعالجة بعض المشاكل بطريقة صحيحة.

-علم النفس التجريبي عندما يشتغل على الحيوانات يتبع طريقه الخاص دون الحاجة إلى مساعدة علم الاجتماع أو الأنتروبولوجيا ولكن هذين العلمين يصبحان مهمين بالنسبة له عندما يحاول أن يطبق اكتشافاتهما في فهم السلوك البشري.

-علم الاجتماع عندما يعالج مشاكل في المجتمع الغربي لا يكون بحاجة إلى خدمات الأنتروبولوجيا، ولكنه يحتاج إلى علم النفس في الوقت ذاته.

-الأركيولوجيا والأنتروبولوجيا الفيزيقية لا يحتاجان لعلم النفس وعلم الاجتماع.

-الباحثون الذين يشتغلون على علم نفس الشخصية وعلى البنية الاجتماعية والأنتروبولوجيا الثقافية، هؤلاء

---

[1]- بيار بونت وميشال ‘يزار، **مرجع سابق**، 786-788.

يحتاجون إلى بعضهم البعض.

2–الكلمات المفتاحية: علم النفس، علم الاجتماع، الأنتروبولوجيا.

3–الفكرة العامة: العلاقة التي تربط الأنتروبولوجيا بعلم النفس وعلم الاجتماع هي علاقة تعاون وتكامل.

4–الإشكال: ما طبيعة العلاقة بين الأنتروبولوجيا والعلوم الاجتماعية (علم النفس وعلم الاجتماع)؟

ج–المقالة

1)–لا شك أن هناك اختلافا بين العلوم الاجتماعية الثلاث: علم النفس وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا. فالأول يدرس الإنسان من حيث هو كائن فرد يزخر بمجموعة من الدوافع والانفعالات، والثاني يتناول الإنسان ككائن اجتماعي، أما الأنتروبولوجيا فتتناوله من جوانب متعددة: فيزيقية واجتماعية وثقافية. وواضع أن الإنسان هو الموضوع المشترك لهذه العلوم الثلاثة ولكن زاوية الاهتمام تختلف وربما هذا ما يدفعنا إلى التساؤل: هل هذا الاختلاف مطلق؟ ألا توجد مع ذلك علاقة تعاون بينها؟

2)العلاقة بين الأنتروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع هي علاقة تعاون وتكامل.

3)إن محاولة فهم الإنسان تتطلب التقاء ثلاثة فروع معرفية هي علم النفس وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا. ويبدو أن الغاية المشتركة هي التي تفرض هذا التقارب في العصر الحالي.

ولا شك في الاختلاف بين هذه العلوم من حيث الموضوع والنتائج والمنهج ولكن توجد بعض الظواهر التي لا يمكن لأي علم منها دراستها لوحده. فلا بد من تعاون هذه العلوم لدراستها بطريقة صحيحة. هكذا إذا كان علم النفس التجريبي يشتغل على الحيوانات فإنه يتبع طريقه الخاص دونما حاجة إلى علم الاجتماع أو الأنتروبولوجيا، ولكن هذين العلمين الأخيرين يصبحان ضروريين ومهمين بالنسبة له عندما يحاول تطبيق اكتشافاتهما في فهم السلوك البشري. وعلم الاجتماع لا يحتاج إلى الأنتروبولوجيا عندما يعالج مشاكل المجتمع الغربي ولكنه يحتاج في الوقت نفسه إلى علم النفس. وبالمثل الأركيولوجيا والأنتروبولوجيا الفيزيقية وهما فرعان من الأنتروبولوجيا لا يحتجان إلى علم النفس وعلم الاجتماع ولكن عندما يتعلق الأمر بدراسة الشخصية والبنية الاجتماعية وبالأنتروبولوجيا الثقافية فإن الحاجة تكون شديدة لتعاون علم النفس وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا الثقافية.

4)هكذا يبدو أن هناك علاقة تعاون تربط علم النفس وعلم الاجتماع بالأنتروبولوجيا وهذا ما يهمنا

هنا. ورالف لنتون يعبر في نصه هذا عن توجه الأنتروبولوجيا الثقافية أو مدرسة الثقافة والشخصية التي تهتم بعلاقة الثقافة بالفرد ولذلك فهي تحتاج إلى علم النفس. ولعل هذا ما يميز هذه المدرسة عن المدارس الأنتروبولوجية الأخرى، ويبرز المكانة المرموقة التي تحتلها الأنتروبولوجيا ضمن حقول المعرفة.

فيما يتعلق بعلاقة الأنتروبولوجيا بعلم الاجتماع يمكن ذكر عمل دوركايم "الأشكال الأولية للحياة الدينية" فهو أنتروبولوجي في جانب منه (معالجة أنظمة التصور، والطوطمية، والدين) ولكنه أيضا أثر مباشرة في أنتروبولوجيين كبار أمثال موس ومالينوفسكي وراكليف براون.

وإذا افترضنا أن الإنسان يعيش في المجتمع ولا يوحد إلا من خلال أمثاله أي داخل نسق من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تربط أعضاء جماعة واحدة، فيمكن اعتبار الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع أنهما يتبعان نفس الغاية، فكلاهما يكرسان في الواقع لدراسة الإنسان في المجتمع. والوحدة بين الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع اتخذت شكل ما يمكن تسميته علم اجتماع مقارن وهي العبارة التي يعرف بها رادكلف براون الأنتروبولوجيا الاجتماعية.

ويمكن القول أنه مع ظهور التفكير الأنتروبولوجي في حقل المجتمع الصناعي المعاصر وامتداد المنظور المقارن في علم الاجتماع برزت توزيعات جديدة للإشكاليات والمناهج والإضاءات بين علم الاجتماع والأنتروبولوجيا. فعلم الاجتماع صار يدمج أكثر فأكثر المرجعيات في الحضارات الأخرى والمنظور المقارن في التحليلات وتكوين مفاهيمه. فعلم اجتماع الاستهلاك مثلا استدعى مفاهيم الهبة، والإسراف والاعتبار المطورة من قبل النظرية الأنتروبولوجية من أجل تحليل بعض الممارسات الاجتماعية الملاحظة في المجتمعات التقليدية.

والتقارب بين العلمين يظهر اليوم على المستويات التالية: موضوعات للبحث إلى غاية الآن ظلت فكرا على الأنتروبولوجيا مثل العيد، والطقس واللعب والأسطورة دخلت اليوم مجال تفكير عالم الاجتماع. ومنهجيا علم الاجتماع يتبنى في مسعاه الملاحظة المشاركة والتحليل الكيفي للممارسات الاجتماعية، وأهمية الوحدات الاجتماعية المحلية والمصادر الشفهية.

ومن جهتها الأنتروبولوجيا تنفتح على الأخذ في الاعتبار عدم التجانس والنزاعي داخل المجتمعات التقليدية تحت تأثير علم الاجتماع. كما أنها تتبنى المناهج السوسيولوجية كالإحصاء مثلا، ولهذا تسمى الدراسات التي يتداخل فيها علم الاجتماع والأنتروبولوجيا بالدراسات السوسيو- أنتروبولوجية.

أما العلاقة بين الأنتروبولوجيا وعلم النفس فهي أوثق وأعمق، وتعتبر الشخصية الحد الأوسط الذي يربط بين العلمين. يقول هيرزجوفتش: "يجب أن نشدد على العلاقات بين الأنتروبولوجيا وعلم النفس. وهذا يقتضي مراجعة الاعتقاد السائد بأن الأنتروبولوجيا تهتم بالجماعات بينما يهتم علم النفس بالأفراد، وهو اعتقاد ساد طويلا ولا يزال يجد مناصرين له. وتبعا لهذا الاعتقاد يكون الأنتروبولوجيون مطالبين بدراسة الثقافة كمجموعة من النظم، من غير التفات إلى مكانة الفرد ووظيفته. ويهتم علماء النفس من جهتهم بالإنسان كفرد وتحليل عملياته العقلية من غير الرجوع كليا أو جزئيا إلى الأساس الثقافي لهذه العمليات" والأنتروبولوجيا بموجب مراجعة هذا الاعتقاد، مطالبة بالتعاون مع فروع المعرفة الأخرى وخاصة علم النفس لأن القاسم المشترك بينهما هو الفرد باعتبار أن لكل فرد شخصية تميزه عن غيره. ولكن الأنتروبولوجيا ستوجه عنايتها بعلاقة الشخصية بالثقافة. فهذه الأخيرة تتمظهر في سلوك أفراد المجتمع"[2].

والحق أن التطور النسبي الذي بلغه علم النفس هو الذي دفع الأنتروبولوجيين الأمريكيين خاصة إلى الاستفادة من مناهجه وتقنياته ومفاهيمه. ويخبرنا هيرزجوفتش أن هناك ثلاث مدارس سيكولوجية لها الأثر الكبير في توجيه دراسة الفرد داخل إطاره الثقافي هي: المدرسة السلوكية بزعامة واطسون، ونظرية الجشتالت، ونظرية التحليل النفسي. هكذا فإن التعلم لدى السلوكيين عملية إشراطية والتثقف كذلك لدى الثقافويين، والجشتالتيون يعطون الأسبقية للكل على أجزائه وقد أغرى هذا الأنتروبولوجيين وجعلهم ينتبهون إلى التكامل والانسجام الحاصل لكل ثقافة من الثقافات. كما أفاد هؤلاء الأنتروبولوجيون من نتائج دراسات فرويد عن اللاشعور، وتفسير الأحلام، ولذلك فقد عمدوا إلى تطبيق تقنيات التحليل النفسي مثل الاختيارات الإسقاطية (بقع الحبر لرورشاخ).

لم يبدأ إلا مع أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات الاهتمام بنوعين من المشكلات المشتركة بين الأنتروبولوجيا وعلم النفس. فأما المجموعة الأولى فتتعلق بمسألة الاختلافات التي توجد داخل الجماعات فيما يتعلق بالعمليات الإدراكية، وبخاصة فيما يتعلق بالذكاء والقدرات الخاصة والفوارق بين الجماعات السلالية وعلاقة هذه الفوارق بمميزات وخصائص كل سلالة منها من ناحية، وعلاقتها بالظروف الثقافية من الناحية الأخرى. أما المجموعة الثانية فتتعلق بالاختلافات الثقافية ذاتها في مجال القيم، وبخاصة فيما يتعلق بمسألة اختلاف القيم التي تفرضها الثقافات المختلفة على أفراد المجتمعات التي تسود فيها تلك الثقافات

[2]- Melville Herskovits, **Les bases de l'anthropologie culturelle**, Payot, Paris, 1967,

وكيف تؤثر هذه القيم المتعلقة بالثقافات في حياة الأفراد.

وهكذا نشأ في الأنتروبولوجيا اتجاه قوي يدرس الشخصية في علاقتها بالثقافة. يقول أوجبرن ونيمكوف:" لقد ظل الأنتروبولوجيون لسنوات طويلة يهتمون كثيرا بالتنظيم الصوري للثقافات المختلفة دون أن يهتموا كثيرًا بالطريقة التي تؤثر بها الثقافة في الشخصية، كما ظل علماء النفس يقفون معظم جهودهم على دراسة السلوك في المعامل التي أعدت خصيصا لهذا الغرض، ويبعدون تماما التأثيرات البيئية رغم ما لها من أهمية عالية. ولكن لم لبث الأنتروبولوجيون أن اكتشفوا الشخصية في آخر الأمر، كما اكتشف علماء النفس الثقافة، وبدأ العلمان يتعاونان بشكل مجدي في دراسة مشكلة العلاقات المتبادلة بين العوامل الثقافية والعوامل السيكولوجية. ثم أسهم علماء الاجتماع في ذلك أيضا، وبخاصة في تحليل أثر المركز الاجتماعي والدور الاجتماعي في الشخصية"[3].

وهكذا نرى العلاقة الوطيدة التي تربط الأنتروبولوجيا بعلم النفس وعلم الاجتماع. ولكن ثمة نقطة يمكن أن نرد فيها على رالف لينتون وتتعلق بنفيه حاجة علم الاجتماع في الغرب إلى الأنتروبولوجيا. إن هذا كان صحيحا ربما في بداية القرن العشرين ولكن التطورات التي حصلت في العلمين- بحيث أقترب علم الاجتماع من الأنتروبولوجيا سواء على مستوى المشكلات المبحوثة أو المنهج، كما اقتربت الأنتروبولوجيا من علم الاجتماع- تثبت العكس. ولم يعد يميز العلمين إلا اختلاف دقيق جدًا.

5) وعليه نقول في الختام إن التكامل المعرفي هو الذي صار السمة المميزة لمختلف العلوم الاجتماعية اليوم. ولا مندوحة لأي علم منها وليكن الأنتروبولوجيا عن اكتشافات العلوم الأخرى. ولكن مع ذلك يجب أن نشدد على ضرورة استقلالية كل علم بأدواته المنهجية ومفاهيمه الخاصة.

---

[3]- أحمد أبو زيد، **مرجع سابق**، ص 86.